الشاهد البلاغي في كتاب "الإيجاز"
ليحيى بن حمزة العلوي

أ.عائشة زايدي د. زهية مرابط
جامعة عنابة

الملخص:
تقوم هذه الدراسة على محاولة استخلاص المنهج الذي تميز به العلوي في كتابه (الإيجاز) وكيفية تعامله مع الشاهد البلاغي بغية الوصول إلى طريقة تُخرج الشاهد البلاغي من النمطية والجمود الذي أصابه في عصور الشروح والحواشي والتلخيصات.

اجتهد العلماء المسلمون في العناية بعلم العربيّة لغة، ونحوا، وصرفا، واشتقاقا، وبلاغة، ودلالة؛ لارتباطه الوثيق بكتاب الله الكريم. أما ما يهمنا في هذه الدّراسة فهو ما كتبه العلوي في البلاغة وخاصة في كتابه الإيجاز.

أولا: الإيجاز.

واسمه الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز من العلوم المعنويّة والأسرار القرآنية وضعه في جزأين، حققه الدكتور بن عيسى باطاهر، وهو دكتور جزائري يعمل أستاذا لمادة البلاغة والنقد المشارك بجامعة الشارقة، ونشرت الكتاب دار المنار الإسلامي، بيروت لبنان سنة 2007 في جزء واحد، وهو أوّل تحقيق للكتاب.

يعد الإيجاز اختصارا وتهذيبا لكتاب الطراز، وهو أحسن ترتيبا وتبويبا منه، وكتاب الإيجاز أقرب منهجا ومادة وأسلوبا إلى كتب البلاغيين المتأخرين من كتاب الطراز. ذلك ان فكرة إعجاز القرآن التي كان لعبد القاهر الجرجاني الفضل في بيانها وتأسيس نظريات وقواعد بلاغية تساعد على فهمها، كانت أحد الأسباب في تأليف الطراز[1]

ثانيا: منهج العلوي في الدرس البلاغي:

تبنى العلوي علم الكلام وعلم الأصول من علوم عصره كذا علوم الشريعة كما تشبع بعلوم العربية، هذه المعارف جعلت درسه البلاغي يجمع بين مدرستين الأدبية المتمثلة في ابن الأثير والكلامية المتمثلة في السكاكي، وهو بهذا شابه عبد القاهر الجرجاني الذي اتخذ من المنطق والحجة العقلية أساس لكتابه (دلائل الإعجاز) ومن الذوق والنزعة الفنية منهجا في كتابه (أسرار البلاغة)، "كتاب الإيجاز مزيجا من الاتجاهين الأدبي والكلامي. ولم تغلب عليه الصبغة الكلامية على المفتاح"[2] وطريقته نجدها عند عبد القاهر الجرجاني، ويقول في ذلك أحمد مطلوب: "وممن جمعوا بين المدرستين الأدبية والكلامية يحي بن حمزة العلوي في كتابه الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، فهو في القسم الأوّل يسير على منهج أدبي واضح في التحليل والإكثار من الأمثلة، وهو في القسم الثاني يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنف مسائل البلاغة، وتقسيمها غلى معان، وبيان، وبديع، جمعت بين المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية"[3]

أما الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي فقد صنف العلوي ضمن المدرسة الأدبية يقول: "لا ينبغي أن ننسى ما قدّمه العلوي لهذا الدرس البياني من فوائد جمة في إطار معالجة أدبية تذوقية جمالية فلقد قفا اثر عبد القاهر الجرجاني في نظريته في النظم يعالج على أساسها تصوره الأدب وتحليلاته، لبيان القيم الجمالية الكامنة وراءها مطبقا فكرته عن النظم على القرآن الكريم محللا آي القرآن الكريم بأسلوب ينم عن إحساس و ذوق أدبي رفيع وإدراك قوي ودقيق لأسرار التراكيب القرآنية"[4] .

ومن الملامح البارزة للاتجاه الأدبي في درس العلوي هو كثرة الشواهد والنصوص الأدبية المتنوعة من قرآن كريم، حديث شريف وكلام الإمام علي، وشعر جاهلي، أموي، عباسي

نعود إلى إبراز الملامح الكلامية التي تظهر في تحديده للفنون وتعريفه لها. والمعروف أن العلوي عالم ثبت في الفقه وأصوله ، وأصول الفقه من العلوم الهامة التي تحفز العقل وتوقظ الملكات فيكون المشتغل به دقيق الملاحظ نافذ النظرة في كل ما يتصل بالأمور العقلية وكان العلوي كذلك، وهذا المنهج سمة من سمات العصر الذي عاش فيه، أما ملامح المنهج الكلامي فتتمثل في تصنيف العلوي لعلوم البلاغة إلى ثلاثة فنون تتفرع غلى تقسيمات عديدة مثل: "المقدمة والمطلب، والمسألة والباب والفصل والمقصد والإشارة والتنبيه، والنوع، والمرتبة والصنف، والفائدة، والقانون والطرف والمثار والوظيفة،، وهو إن حاول الخروج على طريقة السكاكي بطريقته في التناول والتحليل؛ فإنه لم يستطع التخلص من طريقة كثرة التقسيمات والتفريعات"[5]

ومن خلال التحليلات والمناقشات باستخدام المنطق والاستدلال في تعريف الفنون فهو يورد عدة تعريفات للفن الواحد صادرة عن بلاغيين قبله ثم ينقدها مظهرا ما فيها من اضطراب وفساد قال عنه محمد حسنين أبو موسى: "والحق أن العلوي قد شغل جزءا كبيرا من كتابه في مناقشة البلاغيين وخطأهم جميعا فيما ذكروه من حدود، ولم يسلم واحد منهم حتى الجرجاني الذي أسس هذا العلم كما يقول العلوي:" لم يكن تعريفه مبرأ من عيب، والملاحظ أن مناقشته لهم، وبيانه وجه الفساد فيما ذكروا كانت مبنية على معرفة دقيقة بما يجب أن يتوفر في الحدود من الشروط والقيود"[6] ولكن العلوي لم يخطئ البلاغيين جميعا، بل إنه أثنى على آراء الكثير منهم في مسائل مختلفة، كما أن نقده كان مبنيا على الحجة والدليل، وإعطاء البديل الذي يراه مناسبا حسب رأيه، كما يدل هذا على اجتهاده ومحاولة منه للتجديد، والحرص على الإتيان بالجديد خاصة في مسألة التعريفات والحدود.

أولا: تعريف الشاهد:

الشاهد لغة: " الشاهد: شهيد ويجمع على شهداء والشاهد اللسان، أو الملك وهو العالم الذي يبين ما علمه والشهادة: خبر قاطع، واستشهده سأله أن يشهد"[7]

الشاهد اصطلاحا: هو قول عربي شعرا أو نثرا قيل في عصر الاحتجاج وهو بعبارة أخرى جملة من كلام العرب أو ما جرى مجران كالقرآن الكريم، تتسم بمواصفات معينة... وتقوم دليلا على استخدام العرب لفظا أو معنى أو نسقا في نظم أو كلام[8] وعليه يمكن القول أنّ الشاهد في الاصطلاح: هو ما يؤتى من الكلام العربي الفصيح، ليشهد بصحة نسبة لفظ أو صيغة أو عبارة أو دلالة إلى العربية، وللشواهد في العربية أهمية بالغة وملحة، حتى لا ينسب إلى اللغة ما ليس منها، لأن ذلك سيترتب عليه فساد في الأحكام إما النحوية أو البلاغية وحتى الدينية.

ورد في أساس البلاغة للزمخشري: "شهدته وشاهدته، وشوهدت منه حال جميلة ومجلس مشهود، وكلمته على رؤوس الشهود وهم شهودي وشهدائي، والله يشهد لي، ولا استشهده كاذبا، وهو من أهل المشهد والمشاهد... وامرأة مشْهِد خلاف مغيبة، وقد يقال مشهدة ومغيب..."[9]

فالشاهد في اللغة يقصد به الحاضر لا الغائب، والحضور دليل الوجوه والأثر والهوية يملك ثقلا إذا تعلّق الأمر بتمييز لجيد من الرديء، أو يعتقد عليه ففي تبرير موقف ما.

ويعرف المعجم الوسيط الشاهد اصطلاحا كالتالي: "الشاهد من يؤدي الشهادة والدليل"[10] أما الشريف الجرجاني فيقول إنّ الشاهد: "في اصطلاح القوم عبارة عما كان حاضرا في قلي الإنساني وغلب عيه ذكره، فإن كان الغالب عليه فهو شاهد العلم، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو شاهد الوجد، وغن كان الغالب علي الحق فهو شاهد الحق "[11] ويعرف الشاهد أيضا بوصفه "قصة موجهة استخدامها كدعامة تبريرية"[12]

ثانيا: أطوار التأليف البلاغي:

مرت البلاغة شأنها كشأن ك العلوم العربية، بأطوار عدة، حتى استقرت على ماهي عليه، ومن البديهي أنّ التعامل مع الشاهد سيصبغ سمات كل طور.

ولكننا لا نتحدث عن تاريخ البلاغة، لأنه أمر خارج عن إطار هذه الدراسة، وإنما سنظهر نموذجا حول الدرس البلاغي عند العلوي وقدرته على تسيير البلاغة من خلال الشواهد المتنوع في كتاب الإيجاز لأسرار كتاب الطراز ونحن بهذا لا نصادر جهود الذين سبقوا العلوي في البلاغة، بل جهودهم مشكورة، وخاصة لما جاء "عبد القاهر الجرجاني وجمع المنثور والمنشور. وحدد معالمه وزاوج بين التنظير المقبول والتطبيق الشائق في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز"[13]

وهو بهذا يمثل الطور الأول – طور الازدهار والإبداع– ثم يأتي السكاكي والقزويني ومن بينهم العلوي من أصحاب الشروح في طور آخر يمكن أن نسميه – طور التقنين والتقعيد– وكن الدرس البغي شيئا وأصبح بعد عبد القاهر الجرجاني شيئا آخر، ذلك أنه ففي كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة قد يمر بمنهجه كل من جاء بعده حتى قال فيه المراغي: "وكل من جاء بعد عبد القاهر، فمن نور علمه قبس، ومن ينبوع بحره اغترف، وما زيد بعد من المسائل فقشور لا يضير العالم تركها" [14] ونحن إذ نوافق الشيخ المراغي–رحمه الله– على إبراز مكانة عبد القاهر وكتابيه، لا نتفق معه في أنّ ما أضافه غيره لا قيمة له؛ لأن هذه النظرة لا يستقيم معها أي إبداع.

ثالثا: منزلة الشاهد ومكانته في الدرس اللغوي:

لا أحد يشك في مكانة الشاهد في علوم العربية وذلك أن الشاهد يعد العصب لها في مرحلة التنظير، وهو المادة في مرحلة التطبيق والشواهد لا يقف تأثيرها عند هذا الحد بل إنها لتكوّن في مجموعها تراثا حضاريا للأمة ولا يمكن التفريط فيه فضلا عن تجاهله؛ لأنه مرتبط بثقافة هذه الأمة "ارتباطا وثيقا من وقت مبكر من تأريخها لما يختزنه من موروث ثقافي وحضاري ففي حياة العربي، ولما له من أثر كبير في تكوينه الأدبي المعرف حتى غدا ثابتا من أهم ثوابتها[15]

لذلك كانت العناية بالشاهد قديمة، فهناك من يشرحه ويبينه، وهناك من يوثقه وينسبه، فهذا أبو النحاس (ت 338ه) يشرح أبيات سيبويه وذاك الخوارزمي يشرح شواهد الإيضاح، وغيرهم كثر.

يقول الدكتور إميل بديع يعقوب إنها: "تشكل قسما مهما من تراثنا اللغوي عامة... وهي فلا عن ذلك تؤلف جزءا مها من تراثنا الأدبي والحضاري[16]

رابعا: الشاهد البلاغي:

ينطوي الشاهد البلاغي على عمليّة اختيار تلقائي للشاهد تخضع لطبيعته ومادته بحيث ينظر إلى معناه خارج إطار اللغة المباشرة والنظر إليه وفق دلالات جديدة ناتجة عن العلاقات والتراكيب الجديدة "وإن هناك فارقا دقيقا بين التوجه اللغوي الخالص، والتوجه البلاغي، فإذا كان اللغويون يحتفون بشعر فترة الاحتجاج التي ترتبط بمكان وزمان محددين، فإن البلاغيين قد تجاوزوا هذه النظرة اللغوية وتعاملوا مع الإبداع في مراحله المختلفة دون نظر تقويمي إلى قديم أو محدث"[17].

"وقد حدد اللغويون فترة الاحتجاج بانتهاء العام 180ه، بسبب فساد الألسن بعد ذلك"[18].

أما في البلاغة فلم تحدد فترة معينة لقبول الشاهد البلاغي، وإنما اعتمدوا في ذلك على حسن الاختيار الذوقي للشاهد البلاغي وما يشتمل عليه من درجات الإبلاغية، فالمهم في المسألة المادة التي يتوفر عليها الشاهد دون النظر إلى الفترة الزمنية للشاعر أو القبيلة التي ينتمي إليها، وهذا يختلف عن موقف النحاة الذين حصروا الشاهد النحوي الذي يعتد به بقبائل قيس، وتميم، وأسد وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين من القبائل الحجازية"[19]

ويبدو أن شواهد النحو والصرف واللغة هي من أكثر شواهد علوم العربية ثباتا؛ لارتباطها بالقواعد التي بنيت عليها، حتى شكلت جزءا لا ينفصل من ثقافتنا؛ ولهذا لا تعجب من العناية التي حظيت بها على مر العصور.

وإذا كانت سمة الثبات قد وجدت في شواهد النحو والصرف والمعاجم وقضايا اللغة لأنها تتعامل مع قواعد وثوابت، فما هو حال الشاهد البلاغي الذي يستشهد به في قضايا ذوقية جمالية؟

الأصل أنّ الشاهد البلاغي ينبغي ألا تحده حدود لا في نوعه ولا في زمن الاحتجاج به ولا في طريقة تحليله؛ لأن الهدف من هذا الفن هو تربية الذوق، ولا أحد يماري في أثر الشواهد وفي ذلك يقول الأستاذ عايد سليم الحربي: "إن لشواهد البلاغة أهمية كبرى في تذوق أسرارها، واستكشاف دررها، وتفيء ظلال البيان في أعلى مراتبها..."[20]والشاهد البلاغي يمتاز عن غيره بميزات ترجح إلى وظيفته والمجال الذي يتحرك به

لدا بدأت البلاغة العربية بدايات ذوقية كما هو الحال بالنسبة لحركة النقد الأدبي، فكانت عبارة عن ملاحظات ودراسات تعتمد على الفطرة والطبع .حل الشاهد الشعري في أوليات البلاغة العربية، وبقيت على ما هي عليه في العصرين الإسلامي والأموي، لكنها بدأت تميل إلى الناحية التحليلية التي تجمع بين القاعدة والذوق؛ لأن البلاغة في العصر العباسي بدأت تسير نحو النضوج والتطور، وقد استقت مادتها من القرآن الكريم أوى ومن ثم الشاهد الشعري، فاتجهت إلى دراسة الشعراء وصورهم البيانية والبديعية المبتكرة، وقد عمل البلاغيون في هذه الفترة على "رصد ما سبقهم من شواهد صالحة من نماذج الشعر الجاهلي والإسلامي، كما تناولوا من كان قريبا منهم كما فعل ابن المعتز في كتابه البديع، حين استشهد بشعراء مثل بشار وأبي نواس والعتابي وغيرهم، حيث تعامل مع الجميع على مذهب انتقائي يبدأ بالجاهليين والإسلاميين ثمّ المحدثين"[21]

إن الشاهد البلاغي القديم لم يكن جماليا في التركيب والتزويق فحسب، بل أيضا عبر عن جانب وظيفي في التعبير عن شؤون الناس الاجتماعية النفسية والحضارية، فجميع الشواهد تؤول إلى الإمتاع المفيد البياني للفرد والمجتمع وتقديم الخدمة الهادفة، حيث جاءت مضامينها معبرة عن حياة الناس وهمومهم وتطلعاتهم[22] وارتبط استخدام الشاهد البلاغي بعلامات ناتجة عن اهتمامات الأفراد والجماعات وحاجاتهم ونزعاته، ولعلّ هذا العنصر من العناصر التي حددت وجهة الشاهد ونوعه وتركيبه، ومدى تأثيره وتوظيف مضمونه مع الغاية المقصودة لأداء رسالته بين الناس والمتلقين بوجه عام.

فأما وظيفة الشاهد البلاغي فهي القصد إلى كشف الجوانب الفنية والأبعاد الدلالية للتركيب الجميل، ومن هنا كان لابد أن تكون النظرة إلى الشاهد غير موحدة، بل متجددة مع كل دراسة، متميزة مع كل تحليل، وهذا بخلاف الشاهد النحوي والصرفي لذي يورد لقضية محددة وقاعدة معينة.

وهذا ما أشار إليه عبد السلام محمد هارون في معجم شواهد العرب فيذكر أن "الشاهد الواحد قد يستشهد به في أكثر من غرض وفي عدة أهداف علمية[23]

ولكن وإن كنا نشارك الأستاذ المؤدب في ما ذكر، فإننا لا نوافقه على أن تكن نمطية تكرار الشاهد هي الإشكال في القضية بل الأمر يتعلق أيضا بمنهج التعامل معه، ولا شك أن الثبات النمطية إذا كانت مقبولة في شواهد النحو والصرف، فإنها لا يمكن أن تقبل بحال في شواهد البلاغة، وإذا كانت الشواهد الأخرى قد يكتفي منها بتعيين الشاهد ووجه الاستشهاد. فإن شواهد البلاغة تحتاج إلى نظر عميق في التحليل وبيان أسرار الجمال دون التقيد بزمن أو نمط معين.

والذين درسوا البلاغة لمحوا ما أصاب الشاهد البلاغي بعد عهدها الزاهر على يد عبد القاهر الجرجاني من تراجع، فجاءت إشارتهم إلى التكرار والنمطيّة والنقل، فيشيد الشيخ المراغي (ت1345ه) أنّ عبد القاهر كان إماما لأهل هذا الفن

(البلاغة): "يقتدون به في وضع هذه المباحث، وطريقة شرحها وبيانها، وأخذوا الأمثلة والشواهد التي ذكرها في كتبه و لم يحيدوا عنها. حتى قيل وبحق ما قيل: إنّ من جاء بعده عيال عليه..."[24]

فإشادة الشيخ المراغي لإمام البلاغة نوافقه الرأي إلا أننا لا نشاركه على كل ما ذكر خصوصا في قوله: "لم يحيدوا عنها" لأننا سنعرف في هذا البحث الإمام العلوي وهو من أشهر من أفاد من الخطيب الذي أفاد من عبد القاهر، وقد حاد كثيرا عن شواهد عبد القاهر.

كما أن مجال الشاهد البلاغي أرحب، والاختيار فيه أوسع أفقا، فهو يشتمل كلام خلص العرب وكذلك كلام المولدين، بينما علماء اللغة والنحويون لا يستشهدون إلا بشعر حقبة زمنية محددة فأبو نواس (ت199ه) ومن عاصره ومن جـــاء بعده خارج نطاق الاستشهاد عندهم.[25]

وكما أورد ابن رشيق (456ه) "فالمولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ[0] وهذا الاتساع في مجال الاستدلال أتاح للشاهد البلاغي التنوع والتمايز[27]

خامسا: الشاهد البلاغي وتهمة الجمود:

يتهم الشاهد البلاغي أنه بعد عصر ازدهاره على يد عبد القاهر الجرجاني (ت471ه)، قد أصابه الجمود وتسللت إليه النمطية المعروفة في كثير من شواهد العربية، فأصبح الدارسون، يرددون شواهد معية محفوظة لا يحيدون عنها ولا يتميزون حتى في طريقة تحليلها وقراءتها.

يقول محمد أمين المؤدب: "والمتأمل في مجال الشعر وللعروض والنحو والبلاغة، يدرك مظاهر ذلك الثبات دون كبير عناء، وتأسيسه على ذلك فإن البلاغيين –عبر تاريخ البلاغة– قد حددوا للبلاغة العربية موضوعها ورسموا لها إطارها، كما حددوا لها المادة التي يستند إليها الدرس البلاغي وفي مقدمتها الشاهد الشعري..."[28]

وهذه هي النظرة السائدة عن الشاهد اللغوي عموما ويدخل ضمنه الشاهد البلاغي، وهي بلا شك لا يخلو من الحقيقة، لأنّ الأمر يحس به كل من اطلع على المراجع العربية عمما ولحظ بعين البصيرة شواهدها المتنوعة قرآنا وشعرا وحديثا وأمثالا وحكما. بل الأمر يتعدى أحيانا إلى أن يكون الشاهد الواحد دائرا في أكثر من غرض.

يبدو مفهوم الشاهد في الخطاب البلاغي العربي مختلفا عن نظيره في الخطاب اللغوي. ونحصر هذا الاختلاف في مستويين:

1 – أصبح مفهوم الشاهد في الخطاب البلاغي ذا دلالة واسعة، و لم يعد محصورا بقيود زمانية ومكانية؛ ومجال تجريب، قابل للاستبدال ولتعويض وكل الشواهد البلاغية إذا تنزلت في النص تساوت في عين المتفحص[29].

2 – لم تعد وظيفته تقتصر على إثبات القواعد والتمثيل لها، إنما تعدت ذاك إلى البحث عن خصائصه ومزاياه الفنية؛ فمن خلاله يبرز البلاغيون تفاوت الأساليب والتراكيب، ويتناولون مواضع الحسن والقبح في الكلام.

ويأخذ الشاهد في البلاغة موقعا خاصا؛ فهو هنا موضوع للدراسة والتضييق، ومحل الحكم والمعيار، وهو بهذا يكون في سياق المباحث الجمالية[30]

وتأتي أغلب النماذج والشواهد في النص البلاغي ضمن وضعيتين:

الأولى: ويكون فيها الشاهد وظيفيا في السياق البلاغي؛ أي أنّه مباشرة يعين الظاهرة البلاغية.

الثانية: يكون فيها الاستشهاد لمجرد الحكم والإثبات، قصد ترسيخ الظاهرة البلاغية.

ولما كان الاستشهاد شكلا ووظيفة في آن واعتماده يختلف من مصنف بلاغي إلى آخر بحسب اختلاف الرؤى وقيمة الشاهد إنّما تتحدد مما يكتسبه من أبعاد ودلالات.

ويبدو الشاهد البلاغي القديم مكونا محوريا تحركه غايات البحث، ومقاصد البلاغيين، وانسجاما مع هذا التطور فإن قيمة الشاهد، وأهميته ومستويات تناوله يستجيب لما يستجد من أغراض التأليف وحاجاته.

ونخلص إلى أن المرحلة التي جاء فيها العلوي هي مرحلة الثبات والاستقرار، وهي المرحلة التالية لمرحلة عبد القاهر الجرجاني ، ويمثلها السكاكي (ت626ه) والقزويني (ت742ه) وشراحها وفيها اكتسبت الشواهد البلاغية سمة الثبات والاستقرار، حيث عمد في هذه الرحلة إلى فكرة الشاهد النموذج فاعتمدوا على الشواهد التي سبقت بشكل أساسي وإن أضافوا إليها في الكم كما فعل العلوي ولكنهم في الكيف لم يكن لهم سوى تصنيف وتقسيم وتبويب هذه الشواهد في أبوابها التي سبقت وعلى نفس المعايير التي استخدمت فيها من قبل، والعلوي بهذا القسم الذي لخص فيه ما سبقه من كتابات في البلاغة قبله، ومع سيطرة الثبات والاستقرار لمعايير البلاغة وشواهدها في تلك المرحلة، إلا أنه كانت تمد محاولات للعودة بالشواهد للتذوق البلاغي الذي كان عليه عند عبد القاهر ومن بينهم العلوي (ت749ه) في كتابيه الطراز والإيجاز المتضمنين لأسرا البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.

- الشاهد في التقديم والتأخير عند العلوي (نموذج للتحليل) :

نوع الشاهد	كتاب الإيجاز	الملاحظة
القرآن	15	لا يوجد أي تكرار في الآيات
الشعر	7	يتضمن شاهد واحد بيتين
الحديث الشريف	00	/
كلام الإمام علي	00	/

يعدّ مبحث التقديم والتأخير من المباحث الأساسية في علم البلاغة ، فهو واحد من الأركان التي يقوم عليها علم المعاني ، لما له من وثيق الصلة بقصد المتكلم وحال المخاطب والمقام الذي يُلقى فيه الكلام ، ولكن المتأمل في التراث البلاغي يجد اختلافا بيّنا في طريقة طرح هذا المبحث عند البلاغيين العرب وفي عصور مختلفة.

يلاحظ المتأمل في الدرس البلاغي التراثي أنّ بعض مباحثه تتكرر بصورة شبه حرفية أحيانا مع اختلاف المؤلفين ، واختلاف الأزمنة ، دون تجديد في كثير منها سواء على مستوى الأمثلة أو المضامين، مما جعل الدرس البلاغي جافا، نتيجة اعتماده على أمثلة مكرورة، مما يفقد القارئ أو الدارس الشعور بالمتعة فيها.

والمتأمل في مبحث التقديم يرى أنّ البلاغيين اختلفوا اختلافا بيّنا في طريقة التناول والعرض ،مما أدى إلى وجود طرق ومنهجيات مختلفة طُرح المبحث من خلالها .

والذي يمكن أن يلاحظ مبدئيا عند القراءة الأولية هو تداخل الطرح النحوي مع الطرح البلاغي ، وفي كثير من المراجع البلاغية الحديثة التي تعتمد تقديم التراث كما هو، فإذا كان علم النحو والمعاني يلتقيان في وظيفة تأدية المعنى الذي يؤديه هذا يختلف عن المعنى الذي يؤديه ذاك : " النحو يؤدي أصل المعنى مطلقا ،ومصدر المقاييس المعتمدة في تحديد هذا الأصل استقراء كلام العرب لاستنباط القوانين أما المعاني فترصد الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره" [31]

ومن الأمثلة التي يذكرها العلوي اليمني في كتابه "الإيجاز لأسرار كتاب الطراز"، تحت عنوان التقديم والتأخير : "إنّ الألفاظ تابعة للمعاني ،والمعاني لها في التقديم أحوال أربعة"[32]

- تقديم العلة على معلولها عند القائلين بها وقد ذكر" أن مكان هذا الطرح هو الكتب الكلامية، موضحا رأيه بأنّ لا زمانيا، لأنّا لموجب لا يتراخى عن موجبه"[33]
- تقديم التخصيص والتقوية للحكم.

- في" كل" إذا كانت مقدمة على النفي أو تكون مؤخرة عنه
- مما يلزم تقديمه من المسند إليه
- مما يلزم تقديمه من المسند إليه لفظة "هذا"

يبنى التقديم والتأخير عند العلوي على قاعدتين :[34]

القاعدة الأولى لفظية :فما كان أصله التقديم كالمبتدأ ،يكون تأخيره على خلاف أصله لعلة وسبب وما كان الأصل يقتضي تأخيره كالخبر،فتقديمه يكون على خلاف أصله كذلك ،ويكون لعلة وسبب وإذا عرف الأصل عرف المعدول عنه.

القاعدة الثانية معنوية: ولا يكون التقديم والتأخير لغرض لفظي، بل قد يكون السبب هو الاهتمام بالمقدم في نفس المتكلم، وعظم موقعه في قلبه، وكثرة جريه على ذهنه.

ومن الشواهد التي قدمها العلوي عن مبحث التقديم والتأخير ما يلي:

قال تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

إنّ التقديم مفيد للتخصيص غالبا لتوافقهم على أنّ المعنى مثل قوله تعالى :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نخصك بالعبارة لا نعبد غيرك ، ونطلب منك الاستعانة لا من غيرك ولأنه يستدعي سبق الخطأ من المخاطب في الفاعل أو المفعول أو غير ذلك وأصابته في الفعل مثلا وأنت تقصد رده إلى الصواب ،فإذا قلت (أنا ضربت زيدا) كان المدلول ضربت زيدا و لم يضربه غيري لأنك إذا أثبت غير معتقده استدعى المقام نفي معتقده، وإذا قلت ما زيدا ضربت كان المفهوم ما ضربت زيدا وضربت غيره لأنك إذا نفيت معتقده استدعى إثبات غيره فيجتمع إثبات منفيه مع نفي مثبته فذلك معنى القصر ثم هو إما للإفراد قطع الشركة عن متعلق الحكم المتوهم شركته أو القلب وهو رد المتوهم إلى ما يخالفه فيلزم منه ثبوت الحكم عند المخاطب ولكن الخطأ في متعلقه وهو إما قصر الموصوف على الصفة أو عكسه.[35]

ومن أسباب التقديم والتأخير عند العلوي كما سبق في الشاهد القرآني التخصيص وتقوية الحكم ويكون تقديم الاسم على جهة التخصيص في الحالات الآتية:

أ- إذا كان الخبر جملة فعلية سبقت بنفي: ومثال ذلك :(ما أنا قلت ذاك) والمعنى أنّي لم أقله مع كون الفعل قول حادث، لذلك لا يجوز القول(ما أنا قلت ذاك ولا غيري) لما فيه من تناقض الدلالات، لأنّك تكون قد نفيت عن نفسك اختصاصك بالقول الذي حدث وذلك بتقديم الضمير، ثم نفي حدوث فعل القول الذي هو حادث فعلا.[36]

ب- أن يكون واردا في الإيجاب على جهة التخصيص ردا على من زعم انفراد غيره بالفعل ومشاركته فيه، وهذا كقوله: (أنا سعيت في حاجتك، وأنا خاصمت عنك). [37] فإذا أراد نفي المشاركة وتأكيد الانفراد أضاف (لا غيري) أو (وحدي).

ج- وأن يكون تقديم الضمير في الجملة الايجابية والسلبية لتقوية المعنى لا غير مثل:(هو المعطي الجزيل) فالمراد بتقديم الضمير تقرير الحكم وتوكيده وتقويته ،ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ (المائدة 61) فتفسير الآية فهم دخلوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بالإنكار والجحود وخرجوا بالإنكار والجحود مع التكذيب.

د- وأن يكون بناء الفعل على منكر مسند إليه، فإنّه يفيد تخصيص الجنسية أو الواحدية فإنّك إذا قدمته على الفعل أفاد ذاك، كقوله: (رجل جاءني) أي لا امرأة ولا رجلان. [38] فتقديم رجل فيه إشعار بالجنسية والوحدة.

وذكر العلوي أنّ الهدف من التقديم والتأخير في بعض آيّ القران الكريم هو التفنن في القول، ومراعاة نظم الكلام، وفواصل الآيات، كما في قوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

فالتقديم عنده ليس للاختصاص فحسب ،وإنّما لتأليف الكلام، فلو قال نعبدك ونستعينك، لم يكن له من الحسن ما لقوله:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ويكن الجمع بين هذه الآراء جميعا بالقول :إنّ القرآن الكريم يراعي جميع هذه الأوجه من خلال التقديم والتأخير، والهدف الأساسي هو المعنى، وحسن النظم، وجمال التعبير وإيجاز العبارة.

- خاتمة:

وفي ختام هذا المقال نستطيع القول أنّ العلوي تناول العديد من المباحث ومن بينهم مبحث التقديم والتأخير وحاول التجديد في عدة مواطن، كما حاول التيسير والتسهيل ، وذلك من خلال الترتيب الدقيق للمادة تحديد التعريفات، وإيراد الشواهد الكثيرة والمتنوعة وشرحها خاصة الشاهد القرآني الذي كان الطاغي في استشهاداته ، وهذا راجع إلى أنّه أصولي فقيه في أمور الدين ، وبما أنّ العلوي أصولي أفاد هذا في بسط المادة البلاغية في ترتيب دقيق ولكن يعاب عليه إسرافه الشديد في التعريفات والتقسيمات، وكذلك نجده أخد الكثير من الشواهد عن من سبقوه أمثال السكاكي والقزويني وابن الأثير...وفي هذا تقليد وعدم الخروج من النمطية والجمود ونجد العلوي ينتفع بجهود من سبقوه وكانت وجوه اتفاق واختلاف بينه وبينهم وهو يرد ويناقش ويرفض ويعترض ويحكم على كلام الغير بالفساد أحيانا.

وخلاصة هذا العرض أن سعي العلوي هو تجديد منهج شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني، وذلك في العودة بالبلاغة إلى الذوق والطبع، وربطها بالإعجاز القرآني والإكثار من الأمثلة والشواهد وتحليلها بأسلوب أدبي واضح، ولعل من سمات المنهج البلاغي عند العلوي ذلك الربط القوي بين مسائل البلاغة ومباحث إعجاز القرآن.

الهوامش:

(1) الإيجاز، ص3، 4

(2) البلاغة عند العلوي بين التنظير والتيسير ص364، نقلا عن البحث البلاغي عند العرب، أحمد مطلوب، دار الجاحظ للنشر، بغداد 1982، ص67.

(3) أحمد بن عبد السيد الصاوي، مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين (دراسة تاريخية فنية)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1988، ص120

(4) الطراز، ج1، ص04.

(5) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص594.

(6) الجوهري، الصحاح، مادة شهد.

(7) يحي عبد الرؤوف جبر، الشواهد اللغوية، مجلة الأبحاث للنجاح المجلد 2، 1992، ص256.

(8) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، ت عبد الرحيم محمود، المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1979، ص 243.

(9) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، ط3، القاهرة 1972، ص 517

(10) علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة 1938، ص109.

(11) فرانسوا مورو، البلاغة، مدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة مرير، إفريقيا الشرق، بيروت 2003، ص51.

(12) عبد الكريم محمد الأسعد، أحاديث في تاريخ البلاغة، دار العلوم الرياض، ط1، ص41.

(13) المرجع نفسه، ص 21.

(14) محمد أمين المؤدب، الشاهد البلاغي وإشكالية النموذج، مجلة جذور، النادي الأدبي والثقافي بجدة، العدد 5، ص384.

(15) إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية، بيروت، ط1، 1992، ص05.

(16) محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة ثانية، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1997، ص25.

(17) جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ضبطه وقدم له وعلق حواشيه أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد القاسم، ط1، جروس برس، 1988، ص 44.

(18) السيوطي، المصدر نفسه، ص44.

(19) الشواهد الشعرية في كتاب أسرار البلاغة، توثيق وتحليل بلاغي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية اللغة العربة، عايد سليم الحربي، المقدمة.

(20) المرجع نفسه،المقدمة.

(21) محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة ثانية، ص23.

(22) مصطفى الجوزو، الشاهد الشعري في البلاغة العربية (نموذج المتنبي)، عالم الفكر، العدد 46، السنة الثامنة، 1987.

(23) عبد السلام هارون، معجم شواهد العربية، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1972، ص05.

(24) أحمد مصطفى المراغي، تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1950، ص57.

(25) محمود شكري الألوسي، إتحاف الأمجاد في ما يصح بعد الاستشهاد، ت: عدنان عبد الرحمن الدوري، مطبعة الإرشاد، بغداد 1982، ص64- 65.

(26) ابن رشيق، العمدة، ت النبوي شفلان، الخانجي، مصر 2000، ج2، ص 985.

(27) انظر مقال الشاهد البلاغي وإشكالية (النموذج)، مجلة جذور، العدد 5، ص 393.

(28) المرجع نفسه، ص 384- 385.

(29) مراد بن عياد، مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني، ج1، ص9-10.

(30) المرجع نفسه، ج1، ص16.

(31) محمد العمري ،البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، المغرب: إفريقيا الشرق، 1999، ص492.

(32) الإيجاز، ج1، ص140

(33) المرجع نفسه، ج1، ص141،142

(34) الظبي، التبيان في البيان ، تحقيق عبد الستار حسن زموط ، دار الجيل ، بيروت، ص 284

(35) الإيجاز ، ص144

(36) المرجع نفسه، ص145

(37) المرجع نفسه ، ص 146

(38) المرجع نفسه ، ص 146